



المباني المعرفية لأسلوب الحياة الإسلامي والغربي مع التركيز على تعاليم نهج البلاغة

Epistemological Foundations of Islamic and Western Lifestyles with Emphasis on the Teachings of Nahj al-Balaghah

الدكتور مجتبی محمدی مزرعه شاهی

جامعة علوم القرآن الكريم ومعارفه، قم، إيران

mazraehshahi@quran.ac.ir

الدكتور محمد مهدي خواجه پور*

جامعة علوم القرآن الكريم ومعارفه، قم، إيران

dr.khpour@gmail.com

ملخص	معلومات المقال
يُعدّ مفهوم أسلوب الحياة من أبرز المفاهيم الاجتماعية التي حظيت باهتمام واسع في العالم المعاصر. ويُقصد بأسلوب الحياة الطريقة الخاصة التي يعيش بها الفرد أو الجماعة أو المجتمع. وفي الوقت الراهن يُنظر إلى أسلوب الحياة باعتباره عاملاً مؤثراً في جميع جوانب الحياة. وبما أنّ مجتمعنا مجتمع إسلامي، فإنّ أسلوب الحياة يجب أن يستند إلى تعاليم الإسلام ومصادره المتمثلة في القرآن الكريم وسنة النبي (ص) والافتداء بمذهب أهل البيت (ع) والتمحور حول الله تعالى. وفي المقابل، يقوم أسلوب الحياة الغربي على المدرسة الليبرالية والأيديولوجيا المرتبطة بها، حيث يُستبدل التمحور حول الله بالتمحور حول الإنسان، مع التركيز على النزعة الإنسانية والعقلانية والعلمانية والليبرالية. ويُعدّ نهج البلاغة، بما يحتويه من كلمات الإمام علي (ع)، أحد أهم المصادر الإسلامية التي يمكن أن تؤدي دوراً حاسماً في رسم معالم أسلوب الحياة الإسلامي. وتسعى هذه الدراسة إلى بيان أهم الأسس المعرفية لأسلوب الحياة الإسلامي والغربي، مثل التمحور حول الله في مقابل التمحور حول الإنسان، والعقلانية في مقابل الدين، والاتجاه نحو الآخرة في مقابل النزعة الدنيوية، وذلك بالاستناد إلى تعاليم نهج البلاغة.	تاريخ الإرسال: 2025/12/29 تاريخ القبول: 2026/05/09 ✓ الكلمات المفتاحية: ✓ أسلوب الحياة الإسلامي ✓ أسلوب الحياة الغربي ✓ نهج البلاغة
Abstract	Article info
One of the most important social concepts that has attracted attention in the contemporary world is the concept of <i>lifestyle</i> . Conceptualizing lifestyle and defining it is a relatively new topic, and due to the various approaches regarding its meaning, lifestyle has acquired different definitions. Lifestyle refers to the specific way of living of an individual, group, or society. The term was first introduced by Alfred Adler, the Austrian psychologist. Today, lifestyle is considered an influential factor in all aspects of human life. Human beings, depending on the purpose they set for life, must pay attention to lifestyle. Clearly,	Received 29/12/2025 Accepted 09/05/2026 Keywords: ✓ Islamic lifestyle

given the Islamic nature of our society, lifestyle should also be based on the teachings of Islam and its sources, namely the Qur'an, the Sunnah of the Prophet (PBUH), and adherence to the school of Ahl al-Bayt (AS), with God-centeredness as its foundation. In contrast, the Western lifestyle, rooted in liberal ideology, replaces God-centeredness with human-centeredness by emphasizing humanism, rationalism, secularism, and liberalism. It relies on human rights rather than divine obligations, and portrays material gain and worldly pleasures as the ultimate goal of human life. *Nahj al-Balagha*, as one of the Islamic sources, is a collection of the profound words of Imam Ali (AS), and represents a great yet underexplored heritage in religious thought and Islamic lifestyle. It can play a decisive role in shaping an Islamic lifestyle compatible with the cultural characteristics of Iranian society. This study seeks to explain the most important epistemological foundations of Islamic and Western lifestyles—such as God-centeredness versus human-centeredness, rationalism versus religion-centeredness, and afterlife-orientation versus worldliness—based on the teachings of *Nahj al-Balagha*, and to identify their effects and consequences as much as possible.

- ✓ Western lifestyle
- ✓ Nahj al-Balagha

1- المقدمة

تُعَدّ العقلانية في أسلوب الحياة الإسلامي من القضايا الأساسية والضرورية في المجتمعات الإنسانية، وذلك في مختلف مجالات الحياة البشرية. إنّ أسلوب الحياة من منظور الإسلام يقوم على مبادئ ومصادر ومعارف خاصة به، تختلف عن تلك التي يقوم عليها أسلوب الحياة الغربي، وبالتالي فإنّ القيم والسلوكيات الناتجة عنه تكون مغايرة. وتشكل العقائد والاعتقادات (= الرؤية الكونية)، والقيم والواجبات (= الأيديولوجيا)، وأسلوب الحياة (= نظام التفضيلات السلوكية) البنية الأساسية لهوية المجتمع، بينما يُظهر أسلوب الحياة المظاهر العملية لهذه الهوية.

في العصور الماضية لم يكن موضوع أسلوب الحياة مطروحاً كما هو الحال في العصر المعاصر، إذ لم يكن الإنسان يمتلك مصادر معرفية متعددة، وكانت حياته أقل عرضة للتغيرات، ولذلك لم يكن اختيار أسلوب حياة معين يحظى بأهمية كبيرة. أما في العصر الحديث، ومع تعدد المصادر المعرفية وتنوعها، أصبح اختيار أسلوب حياة يتناسب مع العقيدة والرؤية الكونية أمراً ضرورياً. ومع ذلك، لم تتمكن المجتمعات الإسلامية من إيجاد ارتباط وثيق بين العقائد الدينية الأصيلة وأساليب حياتها الاجتماعية، مما أدى إلى ظهور مزيج من العادات الإسلامية والغربية.

إنّ غياب الوعي الصحيح بأسلوب الحياة الإسلامي، وعدم تقديم نماذج دينية مستمدة من الأنبياء والأئمة الأطهار، ومن بينهم الإمام علي (ع)، قد يؤدي إلى نتائج سلبية خطيرة على المجتمعات الإسلامية، حيث يتخلى المسلمون تدريجياً عن عقائدهم وقيمهم، بل ويصل الأمر إلى التشكيك في التعاليم الدينية واعتبارها قديمة وغير مناسبة للعصر، بل إلى حد إنكارها والاستهزاء بها.

ويُعَدّ الحفاظ على أسلوب الحياة الإسلامي والالتزام به وفق القرآن الكريم وسيرة النبي (ص) والأئمة المعصومين من أهم عوامل صون الثقافة والقيم الاعتقادية. ومن هنا، كان الاستعمار عبر التاريخ يسعى إلى مهاجمة أسلوب الحياة في المجتمعات الإسلامية بطرق ناعمة وغير مباشرة، خصوصاً عبر وسائل الإعلام، لتسهيل السيطرة الثقافية والاقتصادية والسياسية.

إنّ تغيير أسلوب الحياة غالباً ما يتم بصورة تدريجية وخفية، حيث يبدأ بتغيير نظرة الأفراد ومواقفهم تجاه القضايا الاجتماعية والثقافية، ثم يتطور إلى تغيير السلوكيات والرؤية الكونية، مما يفتح المجال أمام الانحرافات. وتشمل أهم عناصر أسلوب الحياة نوعية المعيشة وكسب الرزق، الأنشطة الاقتصادية والمعيشية، ثقافة الأسرة، الزواج وتكوين العائلة، نوعية اللباس والمظهر الخارجي، الالتزام بالعادات المحلية، احترام الآخرين، أنماط العمران والبناء، أساليب الترفيه وقضاء أوقات الفراغ، تصميم المحلات والمساكن، واجهات المباني، وأخيراً نوعية السلع الاستهلاكية.

ويُعَدّ الجانب الأهم في أسلوب الحياة هو نوعية التفكير والمشاعر والسلوكيات والقيم الفردية والاعتقادية. وبما أنّ مجتمعنا يقوم على النظام الديني والقيمي، فإنّ السلوك الاجتماعي والفردية يجب أن يعكس هذه المبادئ والأسس. كما أنّ التعاليم الإسلامية تقدم منظومة متكاملة من الأحكام والقواعد المتعلقة بأسلوب حياة المسلمين، والتي يُعتبر الالتزام بها أمراً ضرورياً ولازمياً.

2- الأصول والمباني لأسلوب الحياة في الإسلام والغرب مع التركيز على نهج البلاغة

لا شك أنّ معتقدات الإنسان وإيماناته هي التي تحديه وتوجهه نحو سلوكياته، فهي المنبع الداخلي لحركته نحو أفعاله. إنّ أسلوب الحياة في أي مجتمع يُعَدّ انعكاساً مباشراً لمعتقدات واعتقادات أفرادهِ. وفيما يتعلق بمدى تأثير هذه المعتقدات في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، يمكن القول إنّها هي التي تحدّد مسار حياته. فإذا لم يمتلك الإنسان رؤية صحيحة للحياة والحقائق القائمة، فلن يحقق نجاحاً يُذكر، لأنّ السلوكيات ما هي إلا نتائج لتلك المعتقدات. فالمعتقد الخاطئ يؤدي إلى سلوك غير محمود، بينما المعتقد الصحيح يقود إلى سلوك حسن في حياة الفرد.

ولا يُستثنى أسلوب الحياة الإسلامي والغربي من هذه القاعدة، إذ إنّ كلاهما يقوم على مبادئٍ وُئِي معرفة خاصة به. والتفريق بينهما يحتاج إلى تأمل عميق في الأسس الفكرية التي يقوم عليها كل منهما. ومن هنا، يتناول هذا البحث أهم الفوارق الجوهرية بين أسلوب الحياة في الإسلام والغرب، مع التركيز على ما ورد في الكتاب الشريف نهج البلاغة، باعتباره مرجعاً أساسياً في بيان الأسس المعرفية للحياة الإسلامية.

2- التمحور حول الله في مقابل التمحور حول الإنسان

إنّ التمحور حول الله يعني الالتزام بالحدود والشرائع الإلهية، وهو الأساس الذي قامت عليه حياة أهل البيت (ع) باعتباره قاعدة ومبدأً. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (البقرة: 229). ويُعَدّ هذا المبدأ من أبرز أسس أسلوب الحياة في الإسلام، كما ورد في الكتاب الشريف نهج البلاغة، في مقابل النزعة الإنسانية أو الأومانيسم التي تُشكّل أساس أسلوب الحياة الغربي.

وبحسب هذا الأصل، فإنّ نظام الوجود بأسره منبثق من ذات واحدة مطلقة، وجودها واجب بذاته. فإذا بُنيت حياة الإنسان على التوحيد والخشية من الله، زالت كثير من المشكلات البشرية، لأنّ الحياة حينئذٍ تكون تحت إرادة الله وأمره، ويتحرر الإنسان من الأنانية والاستكبار، ويحل محلها الخوف من الله، والطمأنينة الداخلية، والثبات أمام المعصية، وفهم الدين وبصيرة الشريعة. كما أنّ التمحور حول

الله في المجال الاجتماعي يؤدي إلى نتائج عديدة، منها ضبط السلوك الجماعي، وتعديل مشاعر الحب والبغض، وتعزيز روح المحبة والرحمة، ونشر ثقافة التسامح والعفو.

3- التمحور حول الله في كلام الإمام علي (ع)

يقول الإمام علي (ع) في نهج البلاغة إِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَخَدَّ لَكُمْ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَهَأَكُفُّكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَّتْ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدْعَهَا نِسْيَانًا فَلَا تَنْكَلِفُوهَا (الحكمة 105). إِنَّ الاعتقاد بالله يزرع في نفوس المؤمنين حالة من الرقابة الذاتية، فيضبطون أعمالهم ويتعدون عن الخطأ والمعصية، ويكونون مصداقاً لقوله تعالى: «الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» (التوبة: 112).

ويؤمن هؤلاء بأن الله مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، فيقولون رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (إبراهيم: 38). وبفضل هذا الوعي، يفضلون رضا الله على كل محبوب آخر، ويستغرقون في ذكره، ويستعدون ليوم القيامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم (الشعراء: 88-89).

ويؤكد الإمام علي (ع) أَنَّ اللَّهَ مَطَّلَعٌ عَلَى سِرَائِرِ الْعِبَادِ وَظَوَاهِرِهِمْ، فيقول إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، لَطَفَ بِهِ خُبْرًا وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا؛ أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ (الخطبة 199).

ومن يؤمن بأن «لا مؤثر في الوجود إلا الله» يوجه بصره وقلبه إلى الله وحده، ويستعين به في كل أمر. ويقول الإمام علي (ع): قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِخَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالْعَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهْلِهِ قَبْلَ إِهْوَاقِ أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ؛ وَفِي مُتَنَفِّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَطْمِهِ؛ وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقَدَمَهُ؛ وَلْيَتَرَوِّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ (الخطبة 86).

وفي خطبة أخرى يقول الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ وَعَوَاقِبُ الْأُمْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَتَبِيرِ بُرْهَانِهِ وَتَوَاسِيِ فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ؛ حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً وَ لِشُكْرِهِ آدَاءً وَإِلَى ثَوَابِهِ مَقَرَّبًا وَ لِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا؛ وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ مُؤَقَّلٍ لِنَفْعِهِ وَائِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ مُدْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ؛ وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانًا مِنْ رَجَاءٍ مُوقِنًا وَأَنَابٍ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا وَخَنَعَ لَهُ مُدْعِنًا وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّدًا وَعَظَّمَهُ مُمَجِّدًا وَلَا دَ بِهِ رَاجِبًا مُجْتَهِدًا (الخطبة 182).

هذا النص يبيّن أنّ أسلوب الحياة الإسلامي يقوم على علاقة دائمة بالله، والرجاء في فضله، والسعي إلى قربهِ، مما يحرر الإنسان من التعلقات الدنيوية ويمنحه الطمأنينة والروحانية المستمرة.

3-1 مؤلفات التمحور حول الله في كلام الإمام علي (ع)

في الرؤية الكونية الإسلامية، ولا سيما في التراث الموروث عن الإمام علي (ع) وفي الكتاب الشريف نهج البلاغة، يُعدّ التمحور حول الله أساساً لكل شيء في الوجود. فالعقيدة الإسلامية، المستمدة من آيات القرآن الكريم وكلمات الأئمة المعصومين، تقوم على قاعدة التمحور حول الله. إنّ حضور الله في الكون يتجلّى منذ قضية خلق الإنسان إلى خلق العالم بأسره، بعلمه المطلق غير المحدود، ومسؤولية الإنسان أمامه، وإرادته الشاملة وحكمته البالغة، مما يقدّم صورة متكاملة عن الرؤية الكونية الخدامورية في الإسلام وقادته الدينيين. وقد

أكدت آيات القرآن وكلمات المعصومين مراراً على مظاهر حضور الله المطلق، واعتباره محور جميع الأمور. وتظهر هذه الحقيقة بوضوح في سيرة الإمام علي (ع) وأعماله، حيث يُعتبر نهج البلاغة خير دليل على روح التمحوّر حول الله التي اتسم بها الإمام.

3-1-1- التوحيد

من أبرز الموضوعات التي تتجلى في كلمات الإمام علي (ع) مسألة التوحيد، التي كررها في خطبه وأقواله. يقول (ع): «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تُعقد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تُحيط به الأبصار والقلوب (الخطبة 84).

في هذه العبارات الموجزة، عرض الإمام جميع مسائل التوحيد بأقصى درجات الفصاحة والبلاغة، مؤكداً أن: أول الدين معرفته، كمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه، إذ تشهد كل صفة أنها غير الموصوف، ويشهد كل موصوف أنه غير الصفة.

فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه. ومن قال «فيما» فقد ضمّنه، ومن قال «علام» فقد أخلّى منه.

إنّه كائن لا عن حدوث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده.

هذا النص يوضح أنّ معرفة الله تمرّ بمراحل متسلسلة: المعرفة → التصديق → التوحيد → الإخلاص → التنزيه. وفي النهاية، يجب على الإنسان أن يدرك أنّ ذات الله تعالى أسمى من الصفات والحدود الذهنية واللغوية التي يضعها البشر. هذا التعليم يُشكّل أساس التوحيد الخالص وأسلوب الحياة التوحيدي في الإسلام، الذي يحرر الإنسان من التشبيه والشرك وتقييد الله بالصفات البشرية، ويوجهه نحو الإيمان الصادق والعبودية الحقيقية.

3-1-2- القدرة الإلهية

لقد تناول نهج البلاغة موضوع القدرة الإلهية بصور متعددة؛ فتارةً يُعرض في سياق صفات الله، وتارةً في أفعاله، وأحياناً في إطار النعم التي أنعم بها على خلقه. وفي بعض الخطب ورد الحديث عنها بشكل مباشر وصريح. ففي الخطبة الأولى يقول الإمام علي (ع): فطر الخلائق بقدرته «(الخطبة 1). وفي موضع آخر يصفه بقوله: هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لثدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولعت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وعمّضت مداخل العقول حيث لا تبلغ الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جُبهت معترفةً بأنّه لا يُنال بجور الاعتساف كُنّه معرفته ولا يخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته (الخطبة 91).

يدعون الإمام (ع) في هذا النص إلى إدراك حدود العقل البشري، والاعتراف بعظمة الله اللامتناهية، والتواضع أمام ذاته المقدسة. والرسالة الأساسية هنا أنّ المعرفة الحقيقية بالله لا تتحقق بالعقل وحده، بل بالإيمان والتسليم له. وتُعَدّ القدرة الإلهية من الصفات الثبوتية التي تتفرع عنها صفات عديدة مثل: الرحمن، الرحيم، القاهر، الغالب، المعطي، الغفار، العزيز، الجبار، المتكلم، المصور، القيوم، الخالق، الرازق، المنعم، المفضل، المحسن. فإذا ثبتت صفة القدرة، ثبتت معها تلك الصفات، ولذلك فهي ذات أهمية بالغة، والإيمان بها يترك أثراً عميقاً في أسلوب حياة الإنسان.

3-1-3- الرزق الإلهي

يؤكد القرآن الكريم أنّ الله تكفل برزق جميع المخلوقات، حيث يقول تعالى: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (هود: 6)». إنّ عبارة على الله رزقها تدل على أنّ الرزق واجب على الله تعالى، وقد تكرر هذا المعنى في مواضع عديدة من القرآن الكريم، حيث يُعتبر الرزق حقاً للخلق على الله عز وجل. فجميع المخلوقات، سواء كانت لها مستقرات ثابتة كالأسماك والصدف، أو متحركة كالطيور والمسافرين، أو مؤقتة كالجنين في رحم الأم، فإنّ الله يرزقها في مواضعها.

ومن الواضح أنّ هذا الرزق يصل إلى الإنسان عبر أسبابه الطبيعية، وليس بمعنى أن يجلس بلا عمل منتظراً أن يُلقى رزقه في فمه. وقد أكدت روايات أهل البيت (ع) هذه الحقيقة، حيث قال رسول الله (ص) في حجة الوداع: «أيها الناس، اعلموا أنّ جبريل ألقى في روعي أنّه لن يموت أحد حتى يستوفي رزقه المقدر له، فاتقوا الله واطلبوا الرزق باعتدال، ولا يحملنكم تأخر شيء منه على أن تطلبوه بمعصية، فإنّ الله قسم الأرزاق الحلال بين خلقه ولم يقسم الحرام».

ويقول الإمام علي (ع) في هذا السياق: «اعلموا علماً يقيناً أنّ الله لم يجعل للعبد - وإن عظمت حيلته واشتدت طلبته وقويت مكيدته - أكثر مما سُمّي له في الذكر الحكيم، ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سُمّي له في الذكر الحكيم. والعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحةً في منفعة، والتارك له الشاك فيه أعظم الناس شغلاً في مضرة؛ وربّ منعم عليه مستدرج بالنعيم، وربّ مبتلى مصنوع له بالبلوى؛ فزد أيها المستمع في شكرك، وقصّر من عجلتك، وقف عند منتهى رزقك (الحكمة 273)».

هذا القول يدعوننا إلى الإيمان بالتقدير الإلهي، والاطمئنان في قبول الرزق، والشكر عند النعمة، والصبر عند البلاء، والابتعاد عن الطمع والحرص. وبناءً على هذه التعاليم، يُحرّر أسلوب الحياة الإسلامي الإنسان من القلق والاضطراب الدنيوي، ويمنحه الطمأنينة والثقة بالله والرضا القلبي.

3-1-4- العدل الإلهي

إنّ الله تعالى منزّه عن كل ظلم وجور، فهو الخالق الذي لا يظلم أحداً من عباده، ويتعامل مع الجميع بصفة العدل. والعدل الإلهي لا يعني المساواة المطلقة بين العباد، بل يعني أن ينال كل موجود من الكمالات بقدر قابليته واستحقاقه. وقد ورد في القرآن الكريم أنّ العدل من الصفات الثبوتية لله، فلا يقتصر الأمر على تنزيهه عن الظلم، بل يُثبت له صراحةً صفة العدل. ومن منظور القرآن، فإنّ الظلم لا مكان له في عالم التكوين، كما أنّ العدل يُعتبر الهدف الأسمى لبعثة الأنبياء في عالم التشريع.

وقد أشار الإمام علي (ع) إلى هذه الحقيقة بقوله: «وأشهد أنّه عدلٌ وعدلٌ وحكمٌ فصل (الخطبة 214)»، أي أشهد أنّ الله عادل يقيم العدل بين خلقه، وهو الحكم الذي يميز الحق من الباطل. ويقول أيضاً: «الذي صدق في معاده، وارتفع عن ظلم عباده، وقام

بالقسط في خلقه، وعدل عليهم في حكمه» (الخطبة 185). وفي موضع آخر يؤكد: «وَأَتَمَّ اللَّهُ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطَّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ» (الخطبة 178). أي أنّ فقدان النعم لا يكون إلا بسبب الذنوب، لأنّ الله لا يظلم أحداً من عباده.

3-1-5- العلم والحكمة والقدرة الإلهية

ومن الصفات التي تُظهر التمحور حول الله في حياة الإمام علي (ع) تركيزه على العلم والقدرة والحكمة الإلهية. يقول (ع): «عالم السرّ من ضمائر المضمرين، ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما ضمنتها أكنان القلوب وغيايات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائح الأسماع، ومصايف الذرّ ومشاتي الهوام، ورجع الحنين من الموهلات، وهمس الأقدام، ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام، ومنقمتع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وأحبيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودور قطر السحاب في متراكمها، وما تسفي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعموم بنات الأرض في كئبان الرمال، ومستقرّ ذوات الأجنحة بؤرى شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكر، وما أوعبت الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيت سدفه ليل أو ذرّ عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور، وأثر كل خطوة وحسّ كل حركة ورجع كل كلمة وتحريك كل شفة ومستقرّ كل نسمة ومثقال كل ذرة وهمهم كل نفس هامة، وما عليها من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نقطة أو نقاعة دم أو مضغة أو ناشئة خلق وسلالة، لم يلحقه في ذلك كلفة ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذهم علمه وأحصاهم عدده ووسعهم عدله وغمرهم فضله مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله» (الخطبة 91).

هذا النص يبيّن عظمة علم الله اللامحدود، الذي يشمل كل الموجودات وحركاتها وأصواتها وحتى نوايا البشر الخفية. والرسالة الأساسية أنّ الإنسان يجب أن يخضع لله ويطيعه، لأنّ شيئاً لا يخفى عليه، وكل الخلق في ظل علمه وعدله وفضله.

4- الأومانيسم أو التمحور حول الإنسان

الأومانيسم، بمعناه الخاص، حركة فلسفية وأدبية ظهرت في إيطاليا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ثم انتشرت في أوروبا. أما بمعناه العام، فهو منهج فكري وعلمي يقدّم شخصية الإنسان وتماّم نموه على كل شيء. ويُعدّ الأومانيسم من أهم أسس أسلوب الحياة الغربي، إذ يقوم على الإنسانية والإنسان-المحورية. وهو أساس الثقافة والفلسفة الغربية بعد عصر النهضة، حيث يُعتبر الإنسان معيار جميع القيم والفضائل، بما فيها الحق والعدالة.

وبعبارة أخرى، هو مدرسة تجعل الإنسان محور الوجود، وتنفي أصالة الله والدين وكل ما هو غير بشري. ويُطلق هذا المصطلح على أي نظام فلسفي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو اجتماعي يكون الإنسان مركزه. وهكذا يُستبدل الإنسان بالله، مما يجعله في تضاد مع التمحور حول الله. وفي صورته المتطرفة، ينكر الأومانيسم كل فكر ميتافيزيقي، بما في ذلك الوحي الإلهي، ويُنشئ صنماً جديداً باسم الإنسان ويُروّج لعبادته.

فالأومانيسم ليس بمعنى حبّ الإنسان أو تكريمه، وهو ما تؤكد عليه الأديان التوحيدية، بل هو في جوهره عبادة الإنسان. ويُطلق هذا المصطلح على كل فلسفة أو رؤية تجعل للإنسان منزلة خاصة وتعتبره مركز التأمّلات، وتعطي الأولوية لنموّه وازدهاره (رجبي، 1381: 28). ومن الصعب اعتبار الأومانيسم مدرسة فلسفية محددة كالمدارس الأخرى، بل هو توجه فكري واسع النفوذ، تغلغل في العديد من الآراء والنظريات الفلسفية والدينية والأخلاقية، وكذلك في الرؤى السياسية والاجتماعية في الغرب منذ عصر النهضة (بيات، 1381: 39).

5- أهم المبادئ الفكرية للأومانيسم

5-1- محورية الإنسان في مقابل محورية الله:

يرى الأومانيسم أنّ الإنسان هو معيار كل الأمور ومركز الكون، وهو المالك المطلق للوجود، وكل شيء يجب أن يُقاس بقيمته. وإن كان بعض الاتجاهات الأومانية تتحدث عن الدين والإيمان بالله، فإنّ هذا الالتزام لا يتجاوز كونه وسيلةً لمنع الفوضى الاجتماعية. حتى الأومانيست المؤمن بالله يعتبر الإنسان وحرّيته الهدف، بينما يُعدّ معرفة الله مجرد وسيلة (صانع‌پور، 1378: 26-28).

5-1-1- حرية الإنسان:

من أبرز القضايا التي يوليها الأومانيست اهتماماً كبيراً قضية الحرية. فهم يعتقدون أنّ الإنسان قادر على سنّ القوانين الحقوقية والأخلاقية بنفسه، وأنّ مصيره بيده، رافضين حاكمية القدر الإلهي. ويعتبرون أنّ الإنسان حرّ من قيود الكنيسة والدين، وله أن يسيطر على الدين والتاريخ والطبيعة والدولة (المصدر نفسه: 19).

5-1-2- العقلانية:

من الركائز الأساسية للأومانيسم الاعتقاد بكفاية العقل البشري في معرفة ذاته. ويؤمنون أنّ ما لا يستطيع العقل اكتشافه فهو غير موجود. لذلك فإنّ مفاهيم مثل الله والوحي والمعجزة وسائر المعارف الدينية غير قابلة للإثبات. ويُعتبر العقل عندهم مساوياً لعقل الله، بل ربما أرقى منه، وهو الذي يقود الإنسان ويعزله عن الدين. العقل الأوماني عقل مستقلّ مكتفٍ بذاته، لا يحتاج إلى الوحي (المصدر نفسه: 22-24).

5-1-3- الطبيعية

الأومانيسم يعارض الرؤية الماورائية، ويعتبر أنّ مجال الإنسان هو الطبيعة، وأنّ الإنسان قادر بحواسه على التواصل معها وحلّ مشكلاته. ويرون أنّ الالتجاء إلى ما وراء الطبيعة يُضعف قيمة العقل البشري. الأومانيسم العلماني بطابعه الطبيعي يرفض وجود هدف للكون أو الاعتراف بالله كمصدر مطلق لكل الموجودات، ويؤكد أنّ جميع النظريات الاقتصادية والسياسية والثقافية يجب أن تكون بعيدة عن الأسس الميتافيزيقية.

5-1-4- الديمقراطية:

بما أنّ الأومانيسم يمنح الأصالة للإنسان، فإنّ جميع أفكاره وسلوكياته تُعتبر ذات قيمة. ويرى أنّ جميع العقائد والمذاهب، سواء كانت توحيدية أو إلحادية، تنبع من أصل واحد، ولذلك يجب أن يسود بينها التسامح. ويُعتبر المجتمع المفتوح والديمقراطية أفضل ضمان لحقوق الإنسان (المصدر نفسه: 28-29). كما أنّ للأومانيسم فروعاً متعددة: فردي، جماعي، أدبي، فلسفي، ديني، إلحادي (قنبري، 1383: 48).

6- النقد والمراجعة

من منظور الإمام علي (ع)، الإنسان يتمتع بمكانة رفيعة في نظام الوجود، وهذا واضح في نهج البلاغة. ففي الخطبة الأولى، بعد ذكر خلق الإنسان من التراب وتكوينه من العناصر المادية، يقول بثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً. «...ويضيف...»: «ذا أذهانٍ يجلبها، وفكرٍ يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وأدوات يقبلها، ومعرفة يفتقر بها بين الحق والباطل».

لكن في مدرسة الإمام علي (ع)، الإنسان مخلوق لله، والله هو محور الوجود، والإنسان مسؤول أمامه، لا كما يقول الأومانيست إنّ الإنسان مسؤول أمام نفسه فقط. وفي الخطبة 163 يتحدث الإمام عن صفات فعل الله، أي خلق الكون وعجائبه، فيقول: «الحمد لله خالق العباد وساطح المهاد ومسيل الوهاد ومخصب النجاد». «وفي رسالة إلى ابنه الإمام الحسن (ع) يوصيه بأن يجعل عمله موافقاً للتوحيد، فلا يسجد إلا لله، ويطيعه في كل أمر، ويعرف حده أمام الله، وأنّ وظيفته لا تتجاوز الطاعة والعبادة والخشية من العقوبة والرهبة من غضبه».

7- الاعتراضات على الأومانيسم

الأومانيسم يفسّر العقل البشري تفسيراً خاطئاً. فالعقل أعظم هبة إلهية وأداة أساسية للمعرفة، وهو قادر بمساعدة البديهيات على إثبات أصول الدين كالتوحيد والمعاد، لكنه يعترف بعجزه عن إدراك ما يتعلق بسعادة الإنسان الأبدية، ويحتاج إلى الوحي. أما الأومانيسم فيُهمل هذه الأبعاد ويحرم الإنسان من أهم العلوم المصيرية. (قنبري، 1383: 51).

الأومانيسم يعتبر الدين منافياً لحرية الإنسان، ويُعرّف الحرية بأنها التحرر من الدين، مما يحرم الإنسان من نعمة الوحي.

التركيز على الجانب المادي الأرضي يجعل الإنسان كائناً أحادي البعد، لا يهتم إلا باللذة المادية، ويُشبهه بالحيوان (المصدر نفسه: 46).

النتيجة العملية للإنسان-المحورية في القرون الأخيرة كانت انهيار القيم الأخلاقية من جهة، والتوسع الصناعي المفرط من جهة أخرى، مما أدى إلى اتساع الفجوة الطبقيّة وانتهاك حقوق الفقراء (المصدر نفسه: 51).

الإفراط في الحرية بحجة الكرامة الإنسانية أدى إلى نوع من الاستبداد الفرعوني والطغيان على الآخرين، كما نفى علاقة العبودية بين الإنسان وخالقه. حتى الأومانيست الذين يتحدثون عن الدين يعتبرونه مجرد أداة لخدمة حرية الإنسان، وهو ما ترفضه جميع الأديان التوحيدية (صانع پور، 1387: 33).

8- العقلانية في مقابل الدين

من بين العوامل المؤثرة في أسلوب الحياة، جعل العقل محوراً في جميع شؤون الحياة. ففي أسلوب الحياة الغربي، تُعدّ العقلانية أو *الراسيونالية* (Rationalism) إحدى الركائز الفكرية للعلمانية، وهي تعني اعتماد الإنسان على قوة العقل لفهم القضايا. ويُعتبر العقل المرجع النهائي في حياة البشر، عقلٌ مستقلٌ عن الوحي والمعارف الدينية.

قبل عصر النهضة، وفي الأديان الأخرى، كان للعقل مكانة محورية خاصة، لكنّه كان يُعرف بـ "الرسول الباطني"، أي عقلاً يعمل إلى جانب الوحي والمعارف الدينية. وقد أكّد الله تعالى في القرآن الكريم مراراً على التدبر والتفكير ونهى عن الغفلة واللاعقلانية، مما يدل على المكانة المركزية للعقل في الإسلام.

ما يميز العقلانية في عصر النهضة عن غيرها من الاتجاهات العقلية هو استقلال العقل التام عن الوحي، أي أنّ الإنسان اعتقد أنّه لم يعد بحاجة إلى مصدر ماورائي، وأنّه قادر بالاعتماد على العقل وحده أن ينظم رؤيته ونظامه الفكري. هذا الإفراط نشأ نتيجة الأداء السلبي للكنيسة ورجال الدين الذين أهملوا دور العقل في تنظيم حياة الإنسان، فتهيأت الأرضية لوضع العقل في مواجهة الدين.

كلمة *Rationalism* المأخوذة من الأصل اللاتيني *Ratio* تعني العقلانية، الفكرية، أصالة العقل، وأحياناً تُترجم بالتحري الفكري. وهي اصطلاح يدل على التوافق مع قوانين العقل، وعلى عملية يتم فيها إدخال الواقع والأنشطة التي كانت خارج نطاق الفرد إلى دائرة سيطرة العقل. وفي المجال العملي، تعني العقلانية التوافق الواعي والمنظم بين الوسائل والأهداف.

العقلانية صاحبت الإنسان منذ القدم، ولم تكن حكراً على الغرب، لكن في الماضي لم يكن العقل يعني إنكار الحقائق العليا، بل كان يقود الإنسان نحو معرفة مصدرها الشهود والحضور. بعد النهضة، أصبحت السمة البارزة للعقلانية إنكار كل معرفة فوق عقلية، والتشكيك في أبعاد الوجود التي تتجاوز إدراك العقل البشري. فلسفة ديكرت بدأت بالشك في كل شيء وانتهت بتفسير عقلائي للعالم، ورغم قبوله بوجود حقائق فوق العقل، اعتبرها غير قابلة للمعرفة. أما هيغل، فقد افترض أنّ الوجود حقيقة عقلانية، ورأى أنّ كل ما هو موجود قابل للتفكير.

وهكذا، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث سادت العقلانية، سعى الإنسان إلى تفسير جميع معتقداته وأبعاده الفردية والاجتماعية تفسيراً عقلياً، بعد أن أُقصيت الأسس السماوية والإلهية، وحلّت الأيديولوجيات البشرية محلّ التقاليد ذات الطابع الديني. ومن منظورهم، الإنسان ليس منفصلاً عن الواقع العقلائي للعالم، ولا يمتلك هوية أسمى منه. فالإنسان الذي لا يملك تفسيراً عقلياً كاملاً لنفسه وللعالم، يُعتبر غافلاً عن حقيقته ووجوده.

ويرى هؤلاء أنّ تاريخ الفكر الإنساني انتقل من "الاغتراب عن الذات" إلى "الوعي بالذات"، وأنّ الوجود في مسار تحولاته المستمرة، عندما يتجلى في ذهن الإنسان المفكر، يعود إلى حقيقته ويتحرر من الاغتراب. وهكذا، يصبح الإنسان الغربي في ذروة التفكير العقلاني هو النموذج الكامل للإنسان والوجود.

8-1-1- مراحل العقلانية في الغرب

8-1-1- العقل مؤيد الدين :

في هذه المرحلة، سعى العقلانيون إلى إنهاء الصراع بين العقل والدين، واعتبروا أنّ شريعة العقل مكتملة ومؤيدة للشريعة السماوية. ومن رواد هذا الاتجاه الأفلاطونيون، وبعض المفكرين الإنجليز الإصلاحيين في القرن السابع عشر، وحركة الإصلاح البروتستانتي.

8-1-2- العقل منافس الدين

في القرن الثامن عشر، عصر العقل والتنوير، شهد الإنسان تقدماً هائلاً في العلم والصناعة. وادعى العقلانيون أنّ العقل بلغ مرحلة النضج في مجال الدين، فلم يعد بحاجة إلى الشريعة والوحي. وكما قال إيان باربور: "في القرن الثامن عشر، كادت شريعة العقل أن تحل محل عقائد المسيحية، إذ أصبح العقل الذي كان مكماً للوحي بديلاً عنه في معرفة الله."

8-1-3- العقل منكر الدين :

في أواخر القرن الثامن عشر، ومع ظهور العقلانيين المتطرفين، قيل إنّ الإيمان بالله بعيد عن العقلانية، فأנקروا الدين. ويذكر باربور أنّ الجيل الأول من المفكرين قبل الدين الطبيعي والدين الإلهي، لكن الجيل الثاني مال إلى الدين الطبيعي ورفض الوحي، ومع الجيل الثالث ظهر إنكار صريح لمختلف صور الدين.

وبذلك، لم يُقَصِّص الدين من المجتمع والسياسة فحسب، بل أُهملت أيضاً أصالة الدين في الفكر العقلاني. ومن هنا، اعتُبر أحياناً أنّ العلمانية مرادفة للعقلانية. وكلما ازداد ميل الغرب إلى عقلانية منفصلة عن الدين، ترسخت العلمانية أكثر فأكثر.

9- العقل من المنظور الإسلامي مع التركيز على كلام الإمام علي (ع)

يحتلّ العقل في هندسة المعرفة الدينية مكانةً متميزة. وعلى خلاف الرؤية الحديثة التي تحتل العلوم الطبيعية في عقل المعاش وتكتفي به، يسعى المنظور الإسلامي إلى اعتبار العقل والوحي متكاملين، ويُبرز دور النبي المعصوم الذي يستفيد العلماء من ثمرات تعليمه في مختلف المجالات (جوادى آملي، 2006: 9). إنّ البحث في العقلانية في الإسلام يتجاوز البعد المعرفي البحث ليأخذ طابعاً وجودياً، حيث يُعتبر أعلى مراتب العقل هو العقل/القدس؛ العقل الذي يستمد نوره من الإشراق والإفاضة المباشرة من الروح القدس، فيقدّم الوحي وكلام الله للبشر. أما المراتب الأخرى للعقل فتأتي في درجات أدنى منه. ومن هنا، لا يمكن للروحانية أن تكون خارج دائرة العقل أو في تضاد معه.

إنّ ثمره هذا المنظور أنّ القداسة والمعنوية لا تقتصر على مراتب التعقل العليا، بل تشمل أيضاً شؤون الحياة المادية والدينية، حيث يكتسب عقل المعاش لدى المسلم لونا إلهياً. هذه المعرفة الأصيلة والقدسية هي التي تمكّن الحكيم من رؤية الله في كل مكان، ورؤية النور حيث يعجز الآخرون عن إدراكه (نصر، 2002: 46).

وتُظهر النصوص الدينية (الآيات والروايات) أنّ أساس الإسلام قائم على العقل والفطرة، حيث يمتزج العقل والبراهين العقلية بروح ومضمون الأحكام والقوانين السماوية. ومن ذلك ما رُوي عن الإمام علي (ع) أنّ جبرائيل (ع) نزل على آدم وقال له: «يا آدم، أُمّرت أن أُخَيَّرَ بين ثلاث: العقل، الحياء، والدين». فقال آدم: «اخترت العقل». فقال جبرائيل للحياء والدين: «ارجعا وارتكبا». فأجابا: «يا جبرائيل، نحن مأموران أن نكون حيث يكون العقل». فقال: «أنتم أعلم» وصعد (الكافي، ج1، ح2). يستفاد من هذا الحديث أنّ العقل والحياء والدين متلازمون لا ينفصلون، فمن أُعطي العقل أُعطي معه الحياء والدين.

العقل في معناه الحقيقي . لا بمعنى المكر والخداع . هو ما قاله الإمام جعفر الصادق (ع) العقل ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان» (المجلسي، 1404: 116/1). كما أعلن الإمام علي (ع) أنّ هدف بعثة الأنبياء هو إحياء العقل والفطرة، فقال: «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويدّكروهم منسي نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول (صبحي صالح، 1976: 43). وهذا النص يوضح أنّ بعثة الأنبياء لم تكن للتعليم الظاهري فقط، بل لإيقاظ الفطرة، وتذكير الناس بالنعم، وإقامة الحجة، وإحياء العقول.

ويقول الإمام موسى الكاظم (ع): إنّ الله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة؛ فأما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة (ع)، وأما الباطنة فالعقول (الكافي، 1987: 16/1). وهكذا، يُعتبر العقل والدين ركنين أساسيين للحياة الراقية والسعيدة، بحيث لا معنى للحياة الدينية بدونهما، وإنكار دور أيّ منهما هو إنكار لجزء مهم من حقيقة الحياة العليا، والرضوخ لحياة حيوانية بعيدة عن العقل والمعنوية والآمال السامية الإنسانية والإلهية.

وقد وصف الإمام علي (ع) أعظم ثروة في الحياة بأنها العقل والفكر الناضج، وأعظم فقر ويؤس بأنه الحماسة والجهل (نهج البلاغة، كلمات قصار، رقم 38). وقال بلهجة أكثر جدية: «واغتفرت فقد ما سواها، ولا أغتفر فقد عقل ولا دين، لأنّ مفارقة الدين مفارقة الأمن، فلا يتهنأ بحياة مع مخافة، وفقد العقل فقد الحياة ولا يُقاس إلا بالأموال» (الكافي، 1987: 30/1).

ومن أبرز الأدوار التطبيقية للعقل في حياة المؤمنين إدراك الحسن والقبح في الأفعال، أي ما يُعرف في علم الكلام بـ "الحسن والقبح العقليين". فإذا لم نقبل حكم العقل في السلوكيات ولم نميز بين الخير والشر وفق معايير، سنواجه صعوبة في تحديد الواجبات والمحرمات وفي التمييز بين الحق والباطل. وبذلك تفقد فلسفة الحساب والجزاء معناها الحقيقي يوم القيامة. فالخير خير لأنّ العقل يحكم بحسنة الذات، والشر شر لأنّ العقل يحكم بقبحه الذاتي، وما يراه العقل حسناً يقرّه الشرع، وما يراه قبيحاً يحرمه الشرع ويُعتبر معصية.

قال رسول الله (ص): إنما يُدرك الخير كله بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له» (حرّاني، 1993: 44). وإذا أردنا أن نلخص أهم وظائف العقل في الدين، يمكن جمعها في المحاور التالية: العقل ضابط التكليف. معيار قبول العبادات. معيار استنباط الأحكام. وسيلة إدراك المصالح والمفاسد والحسن والقبح في الأفعال. وسيلة معرفة الشريعة والدين الأكمل. معيار التمييز بين الحق والباطل. عامل حياة وبقاء الشريعة. أساس الحساب يوم الجزاء. مصدر موثوق لاكتشاف كثير من الأحكام وغيرها.

10- العقل والدين من المنظور الإسلامي

مما تقدّم يتضح أنّ العقل والدين . أو بتعبير أدق العقل والنقل . يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ويشكّلان معاً فرعين من شجرة الدين الطبية. فالعقل إلى جانب الدين، عونٌ ومساعد له في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، والدين بدوره مكمل للعقل. ومن هنا نستنتج أنّ الفكر الذي يرى في العقل والدين منافسة أو انفصلاً أو تعارضاً، إنما هو فكر غربي علماني.

العقلانية الحديثة هي وليدة عصر العقلانية أو "عصر التنوير" الذي ظهر بعد النهضة في الغرب، وكان في جوهره ثورةً ضد جميع الرموز الدينية. بعد النهضة، اكتسب العقل الجزئي أصالةً على يد علماء التجربة مثل هوبز، جون لوك، أوغست كونت، ديفيد هيوم وغيرهم، وأصبح يُعرف بمذهب "أصالة العقل". هذا العقل الجزئي الغربي (العقل الحديث) هدفه السيطرة على الدنيا والتسلط على الطبيعة والإنسانية، وقد ارتبط بالعقلانية وروح الرأسمالية الحديثة.

العقل الحديث يُظهر سيطرة واضحة للنفس الأمارة على الإنسان الحديث العلماني، حيث تُقدّم رغباتها على أوامر الله، ويُعتبر الإنسان مالِكاً للوجود ومحوره. وهو نتاج حجابٍ ملوّث وتُعدّ عن الحقيقة التي فقدها الإنسان الحديث.

وباختصار، فإنّ العقل الحديث أو العقلانية (الراسيونالية)، والأومانيسم (الإنسانية)، والعلمانية، كلّها وضعت العقل في غير موضعه، إذ كان ينبغي أن يكون "النبي الداخلي" الذي يهدي الإنسان إلى جانب الأنبياء الخارجيين والدين، لكنه أصبح أسيراً للحسّ والخيال، ومع الرؤية التجريبية الحسية أنكر الله والحقائق الماورائية، وجعل الإنسان معيار كل شيء، ذلك الإنسان الذي انحدر إلى مستوى "الحيوان السياسي"، وغرق في الطبيعة، وجعل غايته النهائية تحقيق اللذات المادية وتلبية النزوات النفسية فقط (انظر: مريم صانع پور، ص 17-32).

أما في المنظور الإسلامي، فالعقل ليس مستقلاً عن الدين والله، بل هو معبر ودليل للوصول إلى الحقيقة الأصيلة للحياة. فبالعقل والبراهين العقلية تُثبت الحقائق الدينية (وجود الله، ضرورة الدين، ضرورة القيم الأخلاقية والشرعية وغيرها). جوهر الكلام أنّ العقل الديني، مهما كان المنظور، له حيثية الكشف، فهو كاشف عن الحقائق الماورائية، لا أنه معيار يبتدع القيم والحقائق أو بديل عن الله ودينه.

ولهذا، فإنّ الإمام السجاد (ع) كسائر الأئمة (ع) يعتبر العقول الناقصة عاجزة عن إدراك أسلوب الحياة الصحيح، ويدعو إلى الاقتداء بأسلوب حياة المعصومين (ع)، لأنه صادر عن عقل كامل نما في ظلّ الوحي وبلغ الكمال. يقول (ع) إنّ دين الله لا يُصاب بالعقول الناقصة، والأهواء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، ولا يُصاب إلا بالتسليم؛ فمن سلّم لنا سلّم، ومن اهتدى بنا هُدى، ومن دان بالقياس والرأي هلك (مستدرک الوسائل، ج 71، ص 262، ح 5).

العقل الديني في بعده العملي (عقل المعاش) وميله إلى إدراك المصالح واجتناب المفاسد في الحياة المادية، هدفه عقلنة الحياة وإيصال الإنسان إلى "الحياة المعقولة"، ليبلغ من خلالها الكمالات الروحية والمعنوية ويحقق أسرار خلقه. أما الحياة بلا عقل معقول فهي صورة مشوهة من الحياة الطبيعية. والحياة المعقولة هي تلك التي تُفعل فيها جميع استعدادات الإنسان لتلبية حاجاته المادية والمعنوية. وهي ما سمّاه القرآن الكريم بـ "الحياة الطيبة"، "الحياة المستندة إلى بَيِّنَةٍ"، و"الحياة الحقيقية" (انظر: العلامة جعفري، 2009: 347-349).

وقد قال الإمام علي (ع): «للتنفوس خواطر للهوى، والعقول تترجر وتنهي» (المجلسي، 1404: 285/74). أي أنّ النفس الأتّارة تولّد خواطر مبنية على الهوى، لكن العقول الرشيدة تمنع تنفيذها وتردع الإنسان عن الانقياد لها.

أما في العقلانية الغربية الحديثة، فقد أصبحت الحياة هي الغاية النهائية، وكل القيم الأخلاقية في خدمة الحياة الدنيوية. وبناءً على هذه النظرة الدنيوية، تُعتبر الوسائل مشروعة مهما كانت، للوصول إلى حياة أفضل ورفاهية أكبر، حتى لو كانت مخالفة للشرعية والأخلاق، أو مشوبة بالمكر والخداع. لكن الإسلام لا يميز هذا الأسلوب أبداً، بل يريد أن يبيّن أنّ الحياة يمكن أن تكون عقلانية وذات عمق ومعنى دون الحاجة إلى الحيلة أو الخداع، لأنّ الهدف مهما كان لا يُبرّر الوسيلة.

11- التأثيرات المتبادلة للعقلانية المفرطة والدين على أسلوب الحياة

إنّ العقلانية المفرطة والابتعاد عن الدين تركت آثاراً سلبية على أسلوب حياة الإنسان المعاصر، فأوقعته في الحيرة والاضطراب، ومن أبرز هذه الآثار: النزعة العدمية، القلق والشعور بالوحدة، الإرهاق النفسي والإحساس بالفراغ الروحي والأخلاقي، العجز عن حلّ مشكلات الإنسان المعاصر، ازدياد الجريمة، والحيرة والتيه.

وفي المقابل، لا شك أنّ التدين المصحوب بالعقلانية يمكن أن يترك آثاراً إيجابية على أسلوب حياة الإنسان، ويمنحه اتجاهات خاصة ومعنى عميقاً. ومن أمثلة هذه الآثار: إضفاء المعنى على الحياة، التوجيه نحو حياة يسودها الاطمئنان، تربية الإنسان وتكميله بما يتناسب مع استعداداته، إزالة الخوف، معالجة الشعور بالوحدة، التمييز بين النافع والضار، إصلاح الفرد والمجتمع، تعزيز التضامن الاجتماعي، تعويض نقائص العالم الحديث، تقديم تفسير متفائل للموت، وإيجاد الأمل في الحياة.

12- الآخرة في مقابل الدنيا

من بين أسس أسلوب الحياة الإسلامي، التوجّه الأخروي في مقابل النزعة الدنيوية الغربية. أي أنّ الاختلاف يكمن في الهدف من الحياة. فأسلوب الحياة الإسلامي والديني يتّسم بالنظرة الأخروية، حيث تُعتبر الحياة الدنيا مجرد ممرّ للوصول إلى الحياة الآخرة. بينما أسلوب الحياة الغربي يتّجه نحو الدنيا فقط، باحثاً عن اللذات والمنافع المادية. ومن الواضح أنّ هيمنة النزعة الدنيوية على عقول البشر تُقصي القيم الروحية التي تقوم عليها حياة المجتمعات.

إنّ التوجّه الأخروي والاعتقاد بهدفية الخلق يمنح أسلوب الحياة بُعداً خاصاً. يقول الإمام علي (ع): «فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه واستودعكم من حقوقه، فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى ولم يدعكم في جهالة ولا عمى، قد سمّي آثاركم وعلم أعمالكم» (الخطبة 86).

وقد أكّد القرآن الكريم وروايات المعصومين على أنّ خلق السماوات والأرض وسائر الموجودات كان له هدف محدّد، وهو كمال الإنسان وسعادته. ومن هنا، يجب أن يكون أسلوب حياة الإنسان موجّهاً نحو تحقيق هذا الهدف. فالقرآن وكلمات الأئمة (ع) يبيّن أنّ نظام الخلق بأسره مسرّح للإنسان ليبلغ الكمال والسعادة الأبدية من خلال علاقته بالله (جوادي آملي، 1993: 608).

إنّ هدفية الخلق تتجلّى في آيات كثيرة، حيث يُذكّر القرآن بأنّ حياة الإنسان المرفّهة جزء من أهداف الخلق، وأنّ الاستفادة من بركات الكون تقود إلى معرفة الله عبر التأمل في آياته. يقول تعالى: «إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي

الألّباب الذین یذکرون الله قیاماً وقعوداً وعلى جنوبهم ویفتکرون فی خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانک فقنا عذاب النار (آل عمران، 190-191).

ومن أهم أركان الحياة الإنسانية "الهدفية". فالحياة بلا هدف حياة فارغة، والأسوأ من ذلك اختيار هدف خاطئ. فالهدف الذي يضعه الإنسان لحياته یحدّد اتجاهها ومعناها. وكلّما كان الهدف أسمى، ازدادت قيمة الحياة وجودتها. ومن ثمّ، فإنّ سعادة الإنسان وکماله مرهونان بمعرفة الهدف وفلسفة الحياة والسعي الدائم لتحقيقهما.

القرآن الکریم يعتبر أنّ الهدف من الحياة الدنيا هو الوصول إلى الحياة الطيبة والحياة الأخروية، وهي الحياة الحقيقية والخلود. وقد ذکر محمدتقي مصباح يزدي أنّ أكثر من ثلث آيات القرآن تتعلق بالآخرة (مصباح يزدي، 2005: 341)، وأكّد مرتضى مطهري أنّ أهم دعوة وجهها جميع الأنبياء بعد التوحيد هي الإيمان بالآخرة (مطهري، 1998: 501/2).

ويشترط القرآن للوصول إلى هذه الغاية أمرين: الإيمان والعمل الصالح. قال تعالى: «من عمل صالحاً من ذکر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» (النحل: 97). فالهدف النهائي للحياة هو القرب من الله، ولا يوجد هدف أسمى منه، لأنّ القرب من الله يعني بلوغ جميع الكمالات والجمال واللذات والسعادة الأبدية.

ومن الأدلة النقلية قوله تعالى: «قل بلى وربّي لتبعثنّ» (التغابن: 7). وقد قال العلامة الطباطبائي: "إنّ القرآن الکریم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تحدّث عن يوم القيامة بتفصيل، وذكره في مئات المواضع بأسماء مختلفة، وأكّد أنّ الإيمان بالآخرة في مرتبة الإيمان بالله، وهو أحد أصول الإسلام الثلاثة، ومن أنكره خرج من الإسلام وكان مصيره الهلاك" (الطباطبائي، 1999: 102).

الإسلام، مع أنّه لا يهمل الدنيا، إلا أنّه يمنح الأولوية للآخرة. قال تعالى: «إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون» (النحل، 7).

13- الآخرة في كلام الإمام علي (ع)

إنّ الإيمان بالمعاد عقيدة أساسية تُشكّل البنية التحتية لجودة حياة المسلم، سواء في نياته أو أقواله أو أفعاله. وقد وردت في كلمات الإمام علي (ع) مضامين سامية حول التوجّه الأخروي، منها قوله: واعلم يا بني أنّك إنّما خلقت للآخرة لا للدنيا، وللبقاء لا للموت لا للحياة، وأنّك في قلعة ودار بلغة وطريق إلى الآخرة (الرسالة 31).

ويقول أما بعد، فإنّ المرء قد يسترّ درك ما لم يكن ليفوته، ويسوّّه فوت ما لم يكن ليدركه؛ فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها. وما نلت من دنياك فلا تُكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تُأس عليه جزعاً، وليكن همك فيما بعد الموت (الرسالة 22). هذه الكلمات تدعو الإنسان إلى التوجّه نحو الآخرة، والاعتدال في الفرح والحزن، والتركيز على المعنوية والکمال الإنساني، وترسم أسلوب الحياة الإسلامي في مواجهة النزعة الدنيوية والإفراط في اللذات المادية.

وفي خطبة أخرى يقول (ع): «ألا وإنكم في أيام أملٍ من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمّله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضّرّه أجله، ومن قصّر في أيام أمّله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضّرّه أجله (الخطبة 28). ويقول أيها الناس، إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقرّكم؛ ولا تتهكّوا أستاذكم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتهم. إنّ المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدّم؟ فله آباؤكم، فقدّموا بعضاً يكن لكم قرصاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم (الخطبة 203).

هذه النصوص تؤكد أنّ الدنيا دار اختبار وعبور، وأنّ ما يبقى للإنسان هو ما قدّمه لآخرته. ومن هنا، يوجّه أسلوب الحياة الإسلامي الإنسان نحو التقوى، الإنفاق، الاستعداد للموت، والتوجّه إلى الهدف النهائي وهو الآخرة.

ويحدّر الإمام علي (ع) من الغفلة عن المعاد، فيقول: «فكأنّكم بالساعة تحذوكم حذو الزاجر بشوّهه، فمن شغل نفسه بغير نفسه تخيّر في الظلمات، وارتبك في الهلكات، ومدّت به شياطينه في طغيانه، وزيّنت له سيّئ أعماله؛ فالجنة غاية السابقين، والنار غاية المفترّطين» (الخطبة 157). هذا النص يدعو إلى اليقظة، إصلاح النفس، اجتناب وساوس الشيطان، والتركيز على الآخرة.

وفي رسالة إلى ابن عباس، يوصيه الإمام علي (ع) بالتوجّه الكامل نحو الآخرة: «فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تُكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأسّ عليه جزعاً، وليكن همك فيما بعد الموت (نهج البلاغة، الرسالة 22).

13-1- التأثيرات المتبادلة للآخرة والدنيا على أسلوب الحياة

إنّ جميع العقائد الدينية تؤثر في سلوك الإنسان، وإن كان تأثيرها متفاوتاً. ومن بين هذه العقائد، يُعتبر الإيمان بالآخرة من أعمق وأفوى المعتقدات في توجيه السلوك وتشكيل أسلوب الحياة وتربية الإنسان وإصلاحه. فالأعمال انعكاس مباشر للعقائد، والسلوك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرؤية الكونية.

الإيمان بالآخرة يمنح الحياة معنىً، ويضبط الغرائز والشهوات، ويوفر الطمأنينة النفسية، ويغرس الشعور بالمسؤولية والاستعداد الدائم، ويحثّ على الأعمال الصالحة واجتناب المعاصي، ويعزز روح الإيثار والتضحية، ويبعد الإنسان عن العادات الخرافية والبدع.

أما النزعة الدنيوية الغربية، القائمة على السعي وراء اللذات المادية فقط، فلها آثار مدمّرة على حياة البشر. ففي الفكر الغربي، الهدف من الحياة هو تحقيق أقصى قدر من المتعة المادية. وكما قال نيتشه: "لقد مات الله" (طالبان، 2005: 45-49). فالإنسان في الفكر الغربي يُعتبر حيواناً تطوّر وفق نظرية داروين، ومن هنا أصبحت المؤسسات الغربية تعتمد في دعاياتها على إثارة الغرائز الحيوانية والبدائية، كما أشار غارودي. (1984: 503)

الإنسان الحديث، تحت شعار الحرية والأومانيسم، أطلق العنان لشهواته بلا حدود، مما أدى إلى أزمة معنوية وأخلاقية في الغرب. وقد وصل الأمر إلى تشريع قوانين زواج المثليين في بعض الدول الغربية، حتى على مستوى كبار السياسيين (طالب، ص 91).

الدنياوية تؤثر على أسلوب الحياة الفردي والأسري والاجتماعي، ومن أبرز آثارها: فقدان الطمأنينة الروحية، انتشار الأمراض الجسدية، تفكك الأسرة، انهيار الأمن الاجتماعي، الأعباء الاقتصادية الثقيلة، تلاشي روح الأخوة، تفشي الفساد الاجتماعي، الأضرار الثقافية والفكرية، والأهم من ذلك الغفلة عن ذكر الله والتعرض لغضبه وعقابه.

14- الخاتمة

مما تقدّم يمكننا أن نستنتج أنّ أسلوب الحياة الإسلامي والغربي يقومان على مؤلفات مختلفة. فأهمّ مؤلفات أسلوب الحياة الإسلامي هي: **محورية الله، الدين، والآخرة**؛ بينما أهمّ مؤلفات أسلوب الحياة الغربي هي: **محورية الإنسان، العقلانية، والدنياوية**. ويمكن استخراج مظاهر هذه المؤلفات الثلاثة من كلمات الإمام السجاد (ع). أمّا دراسة جميع مؤلفات أسلوب الحياة الإسلامي بشكل تفصيلي في ضوء السيرة العملية والقولية للإمام السجاد (ع) فتحتاج إلى بحث مستقلّ.

في أسلوب الحياة الإسلامي، تُعتبر **التوحيدية** أساس جميع القيم والسلوكيات؛ فالإنسان مخلوق مرتبط بالله تعالى، ويتحدّد وجوده في مسار الكمال الإلهي. بينما في أسلوب الحياة الغربي، تُعتبر **الإنسانوية** الأصل الجوهرية، حيث يُنظر إلى الإنسان باعتباره المعيار النهائي للقيم والقرارات.

ومن جهة أخرى، في الإسلام، يكتسب العقل معناه في ضوء الوحي والدين، ف**الدين هو الموجه للعقلانية**؛ بينما في الغرب، يعمل العقل بصورة مستقلة ومكتفية بذاتها، ويُعتبر **العقلانية المطلقة** أساس أسلوب الحياة.

كذلك، في الرؤية الإسلامية، تُعدّ الحياة الدنيا مقدّمة للحياة الأخروية، و**الآخرة هي الهدف الرئيس للسلوكيات والاختيارات**؛ بينما في الغرب، تُعتبر **الدنياوية** والاهتمام بالرفاه واللذات المادية غاية الحياة.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إنّ أسلوب الحياة الإسلامي، بالاعتماد على التوحيد والدين والآخرة، يقدم نموذجاً سامياً وهادفاً للإنسان، يوجّهه نحو الكمال الروحي والاجتماعي. في المقابل، فإنّ أسلوب الحياة الغربي، القائم على محورية الإنسان والعقل المستقلّ والدنياوية، يركّز أكثر على الحاجات المادية والفردية، ويُجرّم من التوجّه المتعالي.

15- المراجع:

- 1- القرآن الكريم.
- 2- نهج البلاغة.
- 3- بيات، ع. (2002). *فرهنگ واژه ها، اندیشه و فرهنگ دینی*.
- 4- پارسا نیا، ح. (2000). *حدیث پیمانه: پژوهشی در انقلاب اسلامی*. قم: معارف.
- 5- جعفری، م. ت.، نصري، ع.، قراملكي، ف.، أسدي، م. ر. (2015). *فلسفة الدين*. قم: پژوهشگاه فرهنگ و اندیشه الإسلامي.
- 6- جعفری، م. ت. (2009). *الحياة المعقولة*. مؤسسة تدوين ونشر آثار العلامة محمدتقي جعفری.
- 7- جوادى آملى، ع. (1993). *الشريعة في مرآة المعرفة*. قم: مركز نشر فرهنگي رجا.
- 8- جوادى آملى، ع. (1993). *مركز نشر اسراء*.
- 9- جوادى آملى، ع. (2007). *منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينية*. قم: اسراء.
- 10- حزانى، ح. ب. ع. ش. (1993). *تحف العقول*. بيروت: مؤسسة الأعلى للمطبوعات.
- 11- دين پرور، س. ج. (2015). *دانشنامه نهج البلاغة*. مؤسسة مدرسه برهان الثقافية.
- 12- رجبى، م. *الأنثروبولوجيا*. مؤسسة الإمام الخميني التعليمية والبحثية.
- 13- غارودى، ر. (1984). *تحذير إلى الأحياء* (ترجمة علي أكبر كسمايى). طهران: هاشي.
- 14- صانع پور، م. (1999). *نقد على المعرفة الأومانية*. طهران: مؤسسة الثقافة والفكر المعاصر.
- 15- صبحي صالح. (2016). *نهج البلاغة*. طبع أفست إيران.
- 16- طالبیان، س. م. ر. (2012). *المهدوية والعولمة*. مجلة معرفة، (90).
- 17- طائب، م. (2001). *عملية العولمة: آثارها ونتائجها*. مجلة معرفة، (44).
- 18- طباطبائي، س. م. ح. (1995). *الميزان* (ترجمة موسوي همداني، س. م. ب.). قم: مكتب النشرات الإسلامية، جماعة المدرسين.

- 19- طباطبائي، م. ح. (1999). *الشيعة في الإسلام*. قم: مكتب النشرات الإسلامية، جماعة المدرسين.
- 20- قدان قراملكي، محمد حسن. (1379 هـ ش). *العلمانية في المسيحية والإسلام*. طهران: منظمة منشورات معهد الثقافة والفكر الإسلامي.
- 21- قنبري، آيت. (1383 هـ ش). *نقد على الليبرالية والإنسانية*. قم: فراز-أندیشه.
- 22- الكليني، محمد بن يعقوب. (1378 هـ ش). *جهان آراء* (ترجمة السيد مهدي آيت الله).
- 23- المجلسي، محمد باقر. (1404 هـ ق). *بحار الأنوار*. بيروت: مؤسسة الوفاء.
- 24- مصباح يزدي، محمد تقي. (1384 هـ ش). *تعليم العقائد*. طهران: شركة الطباعة والنشر الدولية.
- 25- مطهری، مرتضی. (1377 هـ ش). *مجموعة الآثار*. طهران: صدرا.
- 26- نصر، حسين. (1381 هـ ش). *المعرفة والروحانية* (ترجمة: إن شاء الله رحمتي). طهران: مكتب نشر البحوث وسهروردي.
- 27- نوربخش كلبايكاني، مرتضی. (1380 هـ ش). *معجم العلوم الاجتماعية*. طهران: بهينه.